Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 7, No. 3 **ISSN: 2788-6026**
Doi: 10.54720/bajhss/2025.070315 **Pages: 153-167**

قدسية الأم في الفكر العراقي القديم

م. د. عمار ابراهيم صالح
كلية العلوم الاسلامية، جامعة ديالى، ديالى، 32001، العراق.
m.amaribrahim@uodiyala.edu.iq

الملخص
منذ ظهور البشر على هذه الأرض كانت قصة الخلق والتكوين هاجساً لدى الإنسان وعلامة استفهام كبيرة حاول جاهداً تفسيرها بقدر ما أتاحت له تأملاته في أحداث حياته من معاني، وقد شغلت فكرة خلق الإنسان وسبب وجوده في هذه الدنيا حيزاً واسعاً من الفكر الديني في المجتمعات القديمة. ويبدو أن ارتباط ولادة الإنسان وقدومه إلى الحياة بالأنثى جعل الإنسان القديم يعتقد بأنها العنصر الأساسي في الوجود وإدامة الحياة، وبالتالي فإن تقديسها يعني بالنسبة له استمرارية الحياة وإغداق الخير على المجتمع. وقد جعله هذا الاعتقاد يعد الأم إحدى القوى المؤثرة في حياته والمتحكمة فيها، ما جعله يعبدها ويقدسها في شخص ما يُعرف بـ الإلهة الأم. وقد جسد الإنسان القديم تقديسه للأمومة في تماثيل الإلهة الأم التي تصور المرأة في حالة الحمل، ما يرمز إلى تمجيدهم لفكرة الإنتاج التي تجسدها الأنثى في حالة الحمل والمرتبطة بدورها بفكرة الخصب والنماء، وعليه فقد نالت الأم مكانة رفيعة في الفكر الديني للعراق القديم. كما نجد صدى هذه الاهمية في قدسية الأم في الادب والمشاهد الفنية التي عكسها العراقي القديم في فنون الآدب وفن النحت المجسم والبارز. وقد جاءت اهمية البحث في القاء الضوء على النظرة العامة للأم في ثقافة العراق القديم لاسيما جانب الفكر الديني من جهة والجانب الأدبي والفني من جهة أخرى، فقد نالت الأم قدسية خاصة لدى الإنسان القديم، فبالرغم من أن المجتمع العراقي القديم كان مجتمعاً أبوياً إلا أن قدسية الأم ظلت تشكل جزءاً من عقائد سكان بلاد الرافدين في تلك الفترة. وجاءت اشكالية البحث على النحو التالي: ما هو موقع الإلهة الأم في الفكر الديني للعراق القديم؟ وهل هناك وجود واضح في الفكر العراقي القديم للإلهة الأم في خلق الإنسان؟ وما هو دور الأم في الآداب والأساطير من عالمي الآلهة والبشر؟ وكيف تم تصوير الأم في المشاهد الفنية؟ واتبعت الدراسة المنهج الوصفي والتحليلي القائم على عرض المادة التاريخية وتصنيفها ومن ثم تبسيطها إلى الحقيقة التاريخية.
الكلمات المفتاحية: الأم، الفكر، الدين، الفن، الآدب، العراق، القديم.

The Sacredness of the Mother in Ancient Iraqi Thought

Lect. Dr. Ammar Ibrahim Saleh
College of Islamic Sciences, University of Diyala, Diyala, 32001, Iraq.
m.amaribrahim@uodiyala.edu.iq

Abstract
Since the emergence of human beings on this earth، the story of creation and formation has been an obsession for man and a big question mark that he has struggled to explain as much as his reflections on the events of his life have allowed him to make sense of them، and the idea of human creation and the reason for his existence in this world has occupied a wide area of religious thought in ancient societies. It seems that the association of human birth and coming to life with the female made the ancient man believe that she is the main element in the existence and perpetuation of life, and therefore sanctifying her means for him the continuity of life and the lavishness of goodness on society. This

Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 7, No. 3 **ISSN: 2788-6026**
Doi: 10.54720/bajhss/2025.070315 **Pages: 153-167**

belief made him consider the mother as one of the influential and controlling forces in his life, which made him worship and honor her in the person of what is known as the "Mother Goddess". Ancient man embodied his reverence for motherhood in the statues of the mother goddess that depict the woman in the state of pregnancy, which symbolizes their glorification of the idea of production embodied by the female in the state of pregnancy, which in turn is linked to the idea of fertility and growth, and thus the mother received a high position in the religious thought of ancient Iraq. We also find an echo of this importance in the sanctity of the mother in literature and artistic scenes reflected by the ancient Iraqi in the arts of literature and the art of anthropomorphic sculpture. The importance of the research came in shedding light on the general view of the mother in the culture of ancient Iraq، especially the aspect of religious thought on the one hand and the literary and artistic aspect on the other hand, as the mother received special sanctity among the ancient man، although the ancient Iraqi society was a patriarchal society, the sanctity of the mother remained part of the beliefs of the Mesopotamian population during that period. The research problem was as follows: What is the position of the mother goddess in the religious thought of ancient Iraq? Is there a clear presence in the ancient Iraqi thought of the mother goddess in the creation of man? What is the role of the mother in literature and mythology from the world of gods and humans? The study followed the descriptive and analytical method based on the presentation of historical material, classification and then simplification to the historical truth.

Keywords: Mother, Thought, Religion، Art, Literature, Iraq, Ancient.

المقدمة

تمثل المرأة قلب العائلة وركيزة المجتمع البشري، وبدأ دورها المهم يتضح من خلال وظيفتها الأساس كأم ومصدر للحياة واستمراريتها، فمنذ أقدم العصور أدرك الإنسان أن وجوده في الطبيعة يرتبط بحقيقتين خالدتين الأولى أنه لا يمكنه العيش من دون الغذاء وثانيها انه لا يستطيع الإنسان الاستمرار وجنسه من دون التكاثر، إذ سيؤول مصيره إلى الفناء ومن هنا بدأت تتفاعل في أعماق نفس الإنسان مكانة المرأة، كما أثارت أنوثتها اهتمامه من خلال دورها المهم في عملية الحمل والولادة، وربما ساهمت ظروف الحياة في تلك الفترة في تكريس الارتباط بالأم وتقديسها، ذلك أن الإنسان القديم في تلك الفترة اعتمد في قُوته على جمع الطعام، وكان الصيد في تلك الفترة الوسيلة الأساسية للحصول على الغذاء، الأمر الذي تطلب غياب الأب لفترات طويلة بعيداً عن الأطفال، وفي المقابل كان الأطفال يقضون فترات أطول مع الأم، ما جعل من الأم المثل الأعلى في نظر الأطفال، وذلك ما دفع البعض إلى تسمية تلك المرحلة بـ "عصر سيطرة الأم[1] . وقد انعكست قدسية الأمومة على الحياة الاجتماعية في تلك الفترة بظهور المجتمعات الأمومية التي كان الأبناء فيها يُنسبون للأم، حيث كانت الأم في تلك المجتمعات هي الأصل في النسب القبلي باعتبارها رمزاً لوجود القبيلة[2].

وقد حاولنا دراسة قدسية الأم في الفكر العراقي القديم من خلال تقسيم البحث إلى اربعة محاور رئيسية: ففي

المحور الأول: تم تسليط الضوء على قدسية الأم في الفكر الديني، أما في المحور الثاني: بينا دور الإلهة الأم في إنجاب الذرية ,

بينما في المحور الثالث: استعرضنا قدسية الأم في النصوص الأدبية، وجاء المحور الاخير الرابع: تحت مسمى صورة الأم في المنحوتات الفنية.

مع اكتشاف الزراعة وظهور المجتمعات الزراعية في العصر الحجري الحديث (9000-4500ق.م) كان من الطبيعي أن تستمر قدسية الأمومة بشكل أوضح، حيث أن فكرة الخصب والإنتاج التي ارتبطت بالأمومة بدأت تتمثل للإنسان في الأرض التي أصبحت مصدر إنتاج متكرر لما يبعث على الاستمرار في الحياة، وبالتالي فإن خصب الأنثى المتمثل في الولادة والإنجاب انعكس في معتقدات الإنسان القديم على خصب الطبيعة ودورتها الإنتاجية[1]. وأنَّ سكان قرى هذه المرحلة الزراعية كانت عندهم عقيدة دينية، وأنَّ أول معبود تصوروه وعبدوه كان ذات صلة بقوى الأرض المنتجة على هيئة آلهة تمثل الأرض وخصبها، وهذه هي الآلهة التي يُطلَقُ عليها اسم "الآلهة الأُمّ"، وعُثِرَ على الكثير من هذه التماثيل في القرى العراقية القديمة [3].

فقد عثر في بلاد الرافدين على نماذج كثيرة لتماثيل الإلهة الأم تعود لفترات مبكرة من العصر الحجري الحديث (9000-4500ق.م)، ففي مستوطنة جرمو علماً ان جرمو هي موقع أثري في شمال العراق، تقع قرية جرمو إلى الشرق من بلدة جمجمال بحوالي 11كم وعلى مسافة 35كم شرقي مدينة كركوك نقبت في الموقع بعثة المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو 1948-1955، عثر على تماثيل لنسوة بدينات في حالة الحمل، وفي تل الصوان علماً ان تل الصوان هي قرية صغيرة تقع على تل صغير يرتفع 3-4م عن السهل المحيط به وتبعد 11كم جنوب سامراء على الضفة الشرقية لدجلة وموقعها بيضاوي الشكل طوله 230م وعرضة 110م ووجدت فيها اثار

Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 7, No. 3 ISSN: 2788-6026
Doi: 10.54720/bajhss/2025.070315 Pages: 153-167

مصنوعة من الرخام والمرر [4]، (الألف السادس ق.م)، ايضاً عُثر على تماثيل من المرمر تجسد الإلهة الأم في بناء واسع مشيد من اللبن، يبدو أنه شكل من أشكال بيوت العبادة، ما يحتمل معه وجود صفة دينية لهذا المكان ترتبط بعبادة الإلهة الأم، وإذا صح هذا الاعتقاد فإنه يدل على أن عبادة الإلهة الأم شهدت تطوراً كبيراً في تلك المنطقة[3]. ومع مرور الزمن وتتابع الحضارات تطورت تماثيل الإلهة الأم في بلاد الرافدين، فأصبحت في حضارة حلف وهو موقع على نهر الخابور نقب فيه الالمان من 1911-1913وقد سميت باسمة فترة حلف التي يرجع تاريخها إلى الألف السادس وأوائل الألف الخامس قبل الميلاد والتي تتسم بفخارها الملون المتميز [5]، وهو موقع ينتمي لثقافة العصر الحجري الحديث التي تعود للألف الخامس ق.م تجسد امرأة في وضعية الولادة[6] ، وقد عثر على مخلفات هذه الحضارة في تل حلف وتل الأربجية قرب الموصل وسامراء ونينوى وتدل الحفريات على تقدم إنسان هذه الحضارة من حيث أساليب الزراعة وصناعة الأواني الفخارية المتعدد الأشكال والألوان وترجح فترتها في حدود 4500ق.م[7]. أما في تل العبيد يقع تل العبيد في جنوبي العراق على بعد ست كيلومترات من غرب أور الواقعة على مقربة من مدينة الناصرية. تحرت فيه البعثة البريطانية التي تنقب في أور عام (1919) [8]، في جنوب العراق، والذي ينتمي لحقبة العصر الحجري الحديث العائد لفترة ما قبل التاريخ، قد تم اكتشاف تماثيل للآلهة الأم إذ أصبح جسمها الأكثر نحافة والرأس بهيئة مثلث ومثلوا شعرها بطيات من القير، يعني أدخال صفات جديدة لها تتسم بالجمال، فضلاً عن أنها تحمل طفلاً على صدرها، هذا ما يدل على الانجاب والتكاثر، إذ أن هذا الدليل التاريخي ما هو إلا تثبيت لتحليلات للتماثيل القديمة بأنها فعلاً آلهة الأم وأنها خاصة بالخصب [3]، ينظر الشكل رقم (1).

ملحق رقم (1) نماذج من تماثيل الإلهة الأم في بلاد الرافدين خلال عصور ما قبل التاريخ (أ- آلهة أم من تل حلف ب- آلهة أم من دور العبيد الرابع ج- آلهة أم من تل الصوان)[9].

ورغم وجود كل هذه الشواهد على عبادة الإلهة الأم في عصور ما قبل التاريخ، إلا أنها لا تعطي معلومات تفصيلية عن شخصية الإلهة الأم وطقوس عبادتها، أو ما إذا كانت هناك إلهة أم واحدة أم عدة آلهة للأمومة. إذ تبدو الإجابة على هذه الأسئلة صعبة مع غياب الدليل الكتابي، الذي لم يتوفر إلا مع اختراع الكتابة في بداية العصور التاريخية خلال الألف الثالث ق.م. ومع بداية الألف الثالث ق.م كان مجتمع بلاد الرافدين قد شهد العديد من التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أعادت تشكيل النظام الأسري في المجتمع وأعطت الرجل مكانة متميزة في العائلة فتشكلت المجتمعات الأبوية التي جعلت من الأب رأس الأسرة وصاحب السلطة المطلقة فيها[10]. وهو ما يطرح تساؤلاً مهماً حول موقع الإلهة الأم في ديانة بلاد الرافدين في ظل هذه التطورات. لعل ما يميز دراسة الإلهة الأم في العصور التاريخية هو وفرة المعلومات التي تزودنا بها النصوص الدينية عن شخصية الإلهة الأم ودورها في ديانة بلاد الرافدين، وتتجه آراء الباحثين إلى أن الإلهة آرورو كانت هي الإلهة الأم في تلك الديانة[11].

وقد أشير إليها في المصادر المسمارية بعدة ألقاب يرتبط أغلبها بوظيفة الإلهة الأم، فلقب آرورو كان يعني واهبة النسل، كما كانت تلقب بـ ننتو أي السيدة الولود، وننماخ أي السيدة العظيمة أو السامية[12]. ويبدو واضحاً من هذا اللقب المكانة التي حازتها الإلهة الأم في ديانة بلاد الرافدين. أما الآلهة أينانا (عشتار)، فقد عُرِفَ اسمها في اللغة السومرية باسم اينانا ويعني سيدة السماء، ويقابلها في اللغة الأكدية والآشورية باسم عشتار ويعني الربة، وهي تجمع الصفات المتناقضة آلهة الحب والحرب [13]، وتربعت على عرش وظائف الخصوبة، ولاسيما فيما يتعلق منها بالحب والغزل الجنسي لحقبة زمنية طويلة في معتقدات سكان بلاد الرافدين، فكثيرا ما توصف بـالمرأة العذراء اينانا، وأنَّها عبرت أصدق تعبير عن الانثى المعذبة، والمثيرة للغرائز وصاحبة الأنوثة الشديدة [14]، وذكرت في بعضها بابنة الإله آنو وفي البعض الآخر ابنة الإله سين، وهي أخت الإله شمس، وفي الوقت نفسه أخت الآلهة أيرشكيكال معبودة العالم الأسفل، واحتلت الآلهة عشتار مكاناً كبيراً في ديانة سكان بلاد الرافدين[15]، وجُسِّدَتْ في كوكب الزهرة، وخصها الآشوريون بالتقديس عندهم لأنَّها آلهة الحرب، إذ سارت مع بعض ملوكهم في طليعة الجيوش، وأحرزت النصر، وقد نُعِتَتْ باللبؤة الضاربة

واتخذها تموز زوجة لهُ، لكنَّ حبَّها قُضِيَ عليه، ولذلك كانت تندبُهُ، وتمثل تموز في خضرة الربيع، وكانت مدينة الوركاء مركزاً لعبادتها[16].

وقد حظيت الإلهة الأم بمكانة رفيعة في ديانة بلاد الرافدين، فقد كانت إحدى العقائد الأساسية في تلك الديانة، وكانت الإلهة الأم إحدى الآلهة الخالقة التي جسدت القوة العظمى الموحدة للحياة والمتحكمة فيها وهم آنو إله السماء، إنليل إله الهواء، إنكي إله الماء، الإلهة الأم آرورو[12] وهي الأرض، إذ ارتبطت الإلهة الأم في العقائد القديمة بالأرض، باعتبار أن قوى الخصب والإنتاج في إلهة الأمومة كانت تتجسد في خصوبة الأرض المنتجة، ولذلك كانت الأرض رمزاً للإلهة الأم في كثير من الديانات القديمة[11]. وقد ارتكزت عقيدة الإلهة الأم في ديانة بلاد الرافدين على دورها في ثلاثة أمور رئيسية في حياة الإنسان، وهي خلق الإنسان، وإنجاب الذرية، وخصب الطبيعة الذي كان يعد انعكاساً لخصب الأنثى[12]. وفيما يلي استعراض لأهم النصوص التي أشارت إلى حقيقة دور الإلهة الأم في هذه الأمور الثلاثة.

اولاً: قدسية الأم في الفكر الديني

كانت مسألة خلق الإنسان إحدى المسائل الأساسية التي شغلت حيزاً مهما من الفكر الديني في بلاد الرافدين ضمن محاولة إيجاد تصور عقلاني لمشكلات الخلق التي تخص الموجودات بشكل عام (الآلهة، والطبيعة، والبشر) وبما أن الإنتاج الفكري في بلاد الرافدين كان من صنع عدة حضارات متعاقبة (السومرية والبابلية والآشورية)، فإن التصور الديني لمسألة خلق الإنسان لم يأتِ في صورة واحدة، إذ نجد اختلافاً في بعض الشخصيات الإلهية المشاركة في عملية الخلق بين أسطورة وأخرى[17]. ومع هذا التنوع في نصوص الخلق نجد وجوداً واضحاً للإلهة الأم وبشكل متكرر في أكثر النصوص التي تحدثت عن خلق الإنسان، ومن أهم تلك النصوص:

1-**أسطورة إنكي وننماخ:** يرجع عمر هذه الأسطورة السومرية إلى الألف الثالث ق.م، وتعد من أقدم النصوص التي تحدثت عن خلق الإنسان [18]. ومفادها أن الآلهة قررت خلق الإنسان ليقوم على خدمتهم ويتحمل عنهم مشقة العمل، فتطلب الإلهة "نمو" وهي الأم التي ولدت جميع الآلهة من الإله "إنكي" إله الحكمة أن يقوم بخلق الإنسان، فيوجهها إلى الاستعانة بالإلهة الأم.

يا بني انهض من سريرك وافعل ما هو حكيم
اخلق خدما للآلهة وعسى إن يضاعف عددهم
فتدبر الإله انكي الأمر وقاد جميع الصناع المهرة وقال لامه نمو
يا أماه إن المخلوق الذي نطقت باسمه موجود
فاربطي عليه صورة الآلهة
أعجبني لب الطين الموجود فوق مياه العمق
واجعلي الصانعين المهرة يكثفون الطين
وعليك انت ان تجدي له الاعضاء والجوارح
وستعمل ننماخ الإلهة الام في اثناء صنعك
يا اماه قدري مصيره
وستربط ننماخ عليه صورة الآلهة
انه الانسان [12].

ويمكن ملاحظة ما يتضمنه النص السابق حول عملية خلق الإنسان أنه يؤكد ارتباط الأمومة بفكرة الخلق من زاويتين، أولهما أن الإلهة نمو التي قامت بصنع وتشكيل جسد الإنسان هي الإلهة التي توصف بأنها الأم التي ولدت جميع الآلهة. والأخرى أن الإلهة نمو لم تكن لتقوم بعملية الخلق دون مساعدة وإشراف الإلهة الأم المشار إليها في هذا النص باسم ننماخ.

2-**تعويذة الولادة:** يرجع هذا النص إلى العصر البابلي القديم (1894-1594 ق.م)[19]، وإليها ينسب خلق الإنسان للإلهة الأم وحدها. وهو ما يبدو واضحاً من سياق النص، إذ تبدأ مقدمته بخطاب موجه للإلهة الأم يطلب فيه كبار الآلهة منها أن تخلق البشر ليقوموا على خدمة الآلهة ويتحملوا عنهم عبئ العمل.

ما هو نزر سيصبح فيضاً،
عبء الخلق سيحمله الإنسان!
دعوا الإلهة الأم
أكثر الآلهة نفعاً" مامي" الحكيمة:
أنت الرحم الولود،

تلك التي تخلق البشر،
اخلقي إذن" لولو" ودعيه يحمل النير!
النير سيحمله [20].

مامي: أحد ألقاب الإلهة الأم، وتحمل إجابة الإلهة الأم لهذا الطلب، ما يدل على تفردها بمهمة خلق الإنسان:

(ننتو) فتحت فمها قائلة للآلهة العظيمة
مهمتي عمل كل شيء صالح
فليظهر للو (الإنسان)، فليكن من الطين، ولتبعث فيه الحياة بالدم[20].

ثم تتحدث بقية التعويذة عن كيفية خلق الإلهة الأم للإنسان من الطين ومزجه بدم إله ذُبح لهذا الغرض[20].

3- **أسطورة أترا- حاسيس:** ترجع أقدم نسخة مكتشفة لهذه الأسطورة إلى العصر البابلي القديم (1894-1594 ق.م)، ويبلغ أبيات الملحمة نحو 1300 بيت موزعة على ثلاث ألواح، وتسرد هذه الأسطورة سلسلة من الأحداث تبدأ قبل خلق الإنسان وتنتهي بنهاية قصة الطوفان[21]. وكان للإلهة " ننتو" إلهة النسل، دور كبير في هذه الأسطورة، والتي أخذت على عاتقها خلق الإنسان من طين, وثمة تشابه واضح في تفاصيل قصة خلق الإنسان في هذه الأسطورة إلى حد كبير بالقصة المذكورة في تعويذة الولادة، حيث يتم استدعاء الإلهة الأم "ننتو" لتقوم بخلق الإنسان:

بعلة إيلي إلهة الرحم حاضرة
فلتخلق إلهة الرحم ذرية،
استدعوا الإلهة، وسألوا قابلة الآلهة
مامي الحكيمة أنت إلهة الرحم
خالقة الجنس البشري[22].

بعلة إيلي: تعني سيدة الآلهة. وأن الإلهة الأم في هذه الأسطورة لم تتفرد بعملية الخلق وحدها، فنجدها تطلب مساعدة الإله إنكي للقيام بهذه المهمة:

أسمعت ننتو صوتها، وخاطبت الآلهة العظماء
ل يليق بي أن أصنعه، هذا عمل إنكي،
هو من يصنع كل شيء طاهر
إن هو أعطاني طيناً فسوف أصنعه[22].

ويمكن تفسير ما جاء في الأسطورة إن دور الإله إنكي في عملية الخلق كان في إجراء المراسم المقدسة، إذ أقام مغتسلاً تطهرت به جميع الآلهة وتم ذبح أحد الآلهة، ثم جاء دور الإلهة الأم في صنع وتشكيل المخلوق البشري.

أقام مغتسلاً للتطهر
واستدعوا إلا- ويلا الذي كان عنده بذرة الروح
وذبحوه في مجمعهم
وبدمه ولحمه مزجت "ننتو" الطين
وعلى طول الدهر بقوا يسمعون صوت الطبل[21]
من جسد الإله كانت الروح[21].

ويتجه بعض الباحثين إلى أن المقصود بصوت الطبل نبض قلب الإنسان. ورغم مشاركة الإله "إنكي" للإلهة الأم في خلق الإنسان إلا أن أننا نجد الشكر والامتنان موجهة من قبل الآلهة العظام إلى الإلهة الأم.

هرعوا إليها وقبلوا أقدامها (قائلين)
فيما مضى كنا نسميك مامي
أما الآن فليكن اسمك ربة الآلهة جميعاً بعلة إيلي[21] .

وما يمكن أن نستنتجه من النصوص السابقة هو ارتباط الأمومة بفكرة الخلق من عدة أوجه، فالمادة التي كان يُخلق منها جسد الإنسان هي الطين، وكما سبقت الإشارة فإن قوى الإلهة الأم الخالقة والمولدة انعكست لدى الإنسان في صورة الأرض المنتجة للزرع، حيث ربط الإنسان فكرة الإنجاب والولادة من رحم الأم، بالإنتاج من الأرض، ولذلك فإن فكرة تكوين الإنسان من الطين جاءت من ارتباط خلق الإنسان بالأمومة، والتي تجسدت في صورة الإنبات من الأرض. وبما أنه تصور الأرض كرحم الأم، فقد كان من الطبيعي

أن يتشكل الجسم البشري من طين الأرض. ومن جهة أخرى نلاحظ رغم اختلاف حجم دورها في خلق الجنس البشري، إلا أن القاسم المشترك لدور الإلهة الأم في عمليات الخلق السابقة هو ارتباطها بخلق وتشكيل الجسد، وربما كان ذلك عائداً إلى ارتباط دور الإلهة الأم بفكرة الأمومة (الحمل والإنجاب)، فكان دورها المؤكد في كل هذه النصوص مرتبطاً بتشكيل الجسد باعتبار أن التكوين الجسماني للطفل يتم داخل رحم الأم.

4-**تعويذة مردوخ:** مردوخ، وهو إله مدينة بابل الرئيس، ومعنى اسمه باللغة السومرية عجل الشمس أما اسمه باللغة البابلية فهو مار-دوك أي بمعنى ابن الإله دوكو ومعناها التل المقدس وهو مجلس الآلهة ويقع ضمن المنطقة الشرقية لمنطقة بابل، ظهر اسم الإله مردوخ منذ عصر ميسيليم حوالي 2600ق.م، أما ارتباط اسمه بمدينة بابل واتخاذها له كإله رئيس فقد حدث ذلك منذ زمن سلالة أور الثالثة (2111-2006ق- م)[23]، بينما المعنى الذي يتضمنه اسمه يشير إلى علاقته بالإله شمش أكثر من علاقته بالإله انكي. ويعود أقدم وصف أدبي للإله مردوخ إلى مقدمة شريعة حمورابي (1792-1750ق.م)، وعندما عظم شأن بابل ارتفع شأن الإله مردوخ على أنه هو الذي خلق الإنسان، ويعد هذا الإله حسب ما توضحه أسطورة الخليقة البابلية ابن الإله أيا ومن ثم فقد ورث عن أبيه فضائل الحكمة والمعرفة وأصول السحر، أما زوجة الإله مردوخ في الميثولوجيا البابلية هي الإلهة ساربانيت أو زاربانيتو، وكانت تعبد كإلهة للأم وزوجة الإله الرئيس مردوخ، ويُحتفل بزواجهما سنوياً، وغالباً ما كانت تُصور وهي حامل، أذ كان زواجها من مردوخ حدثاً هاماً في الديانة البابلية، ويُعتقد أنه يرمز إلى الخصوبة، فقد لعبت دوراً في الأساطير البابلية، إذ ارتبطت بالولادة والخصوبة[24].

ويعود هذا النص للعصر البابلي الحديث (627-539 ق.م)، وهو نص ثنائي اللغة مدون بالسومرية والأكدية، ويتضمن استعراضاً لمنجزات مردوخ إله بابل في خلق العالم الأرضي. ومع ما يحمله النص من تمجيد للإله مردوخ واستعراض أعماله الخارقة، إلا أن عملية خلق البشر تحديداً لم تتم دون مساعدة الإلهة الأم التي أشار إليها النص باسم آرورو[12] .

وحتى يجعل الآلهة تستكين في مستقر بهجة قلوبهم،

فإنه خلق البشر، الإلهة آرورو خلقت معه بذور البشرية[12].

ثانيا: دور الإلهة الأم في إنجاب الذرية والخصب

كان تناسل الجنس البشري إحدى المهمات الرئيسية التي اضطلعت بها الإلهة الأم في ديانة بلاد الرافدين، وهي مهمة لم تقتصر فقط على مباركة وتسهيل عملية الولادة بل اتسعت إلى دائرة أوسع، فالإلهة الأم حسب ما جاء في النصوص البابلية والآشورية، هي التي سنت وقدرت نظام تكاثر المخلوق البشري ابتداءً من خلقه على شكل زوجين مروراً بمرحلة الحمل وتقدير مدتها ومراحل تكون الجنين وحتى إتمام عملية الولادة بنجاح، وهو ما يوضحه هذا المقطع من نص ملحمة أتراحاسيس[22]:

وعندما أنهت تعويذتها
قبضت أربع عشرة قبضة
سبع قطع منها إلى اليمين وسبع إلى اليسار
ودعت إلهات الرحم الحكيمات ذوات المعرفة،
سبعاً منها خلقن الذكور وسبع خلقن الإناث
في منزل امرأة تلد،
يجب أن تحفظ قرميدة الطين لسبعة أيام
يجب أن تُكرَم بعلة إيلي، الحكيمة مامي
ويجب أن تبتهج القابلة في المنزل حيث المرأة التي تلد
كانت إلهات الرحم مجتمعات،
وكانت ننتو حاضرة، أحصوا الأشهر،
وعينوا الشهر العاشر موعد الأقدار
وعند حلول الشهر العاشر
انسلت في قصبة وشقت الرحم
بدا وجهها مسروراً وفرحاً
غطت رأسها وقامت بعمل القابلة
لبست حزامها وتلت البركة
ثم رسمت شكلاً فوق الطحين ووضعت قرميدة الطين

أنا بنفسي خلقته يداي قد صنعته
سوف تبتهج القابلة في المنزل حيثما تلد امرأة
عسى أن تنفصل والدة الطفل بنفسها،
يجب أن تحفظ قرميدة الطين لتسعة أيام
وسوف تكرم ننتو إلهة الرحم[22].

ونظراً للخطورة التي كانت تكتنف حالات الولادة آنذاك فقد اعتقد سكان بلاد الرافدين أن حالة الولادة من الأوقات الحرجة التي تحتاج فيها المرأة لمساعدة الإلهة الأم، ولذلك كانوا دائماً ما يرددون التعاويذ والرقى طلباً لنيل بركتها في تسهيل عملية الولادة. وفي نص من نصوص الرثاء لامرأة توفيت أثناء عملية الولادة نجد إشارة إلى أن انصراف الإلهة الأم عن تلك المرأة كان سبباً في وفاتها:

في يوم ولدتي أصبحت عيناي دامعتين
صليت إلى سيدة الآلهة بأيدٍ مرفوعة
أنت أم النساء اللاتي يلدن، أنقذي حياتي
عندما سمعت سيدة الآلهة ذلك غطت وجهها
أنت لماذا تقدمين الصلاة لي؟
زوجي الذي يحبني أطلق صرخة
تسلل الموت خلسة إلى غرفة نومي
انتزعني عنوة من بيتي
ووضع قدمي باتجاه الأرض التي سوف لن أرجع منها[25].

وتبدو أهمية دورها كإلهة للولادة في حديث الإلهة عشتار وغبطتها للإلهة الأم بسبب المكانة التي كانت الأخيرة تتمتع بها انطلاقاً من دورها كإلهة للولادة:

أنا إنانا المقدسة أين هي امتيازاتي؟
إن آرورو أخت إنليل
وننتو ملكة الجبال
حصلت لنفسها .(..) المقدس الخاص بالسيادة
وحصلت لنفسها على إناء السيللا المطعم
المصنوع من حجر اللازورد
وحملت لنفسها إناء آلاء المقدس
لقد أصبحت مُولِدة البلاد
وفي يدها وضعت الملك الوليد والسيد الوليد[12].

أما مسألة الخصب فإنها تعد من المسائل الحيوية البارزة في كثير من الديانات القديمة، ذلك أن الخصب وإنتاج الغذاء ضمان لديمومة الحياة واستمراريتها. وباعتبار أن ألوهية الخصب تمثل النصف المذكر من عقيدة الحياة في الديانات القديمة، بينما تجسد الإلهة الأم نصفها المؤنث، فإن الكائنات الحية لا تتكاثر أو تستمر في الوجود إلا باقتران هذين الإلهين معا.

وفي أسطورة إنكي وننخرساك التي كان مسرحها الأرض المقدسة (دلمون) وأن الأغلبية من العلماء يكادون يتفقون على أن موقع دلمون، إنما هو جزيرة البحرين الحالية، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها[26]، وقد احتلت الإلهة ننخرساك الإلهة –الأم مكانة بارزة بين الآلهة الخالقة، وعُرفت بأسماء عدة، مثل : ننماخ أي السيدة العظيمة، وباسم ننتو أي السيدة التي تلد أو السيدة الوالدة، وبلغت مرتبة هذه الإلهة في الأزمان القديمة درجة كبيرة من التعظيم، فكثيراً يرد اسمها قبل اسم الإله انكي في بعض إثباتات الآلهة، وكانت هذه الإلهة في الفكر الديني للعراقيين القدماء أماً لجميع الأشياء الحية[27]. وتروي لنا الأسطورة أن ننخرساك حملت من انكي بعد أن نام معها: (ننخرساك التي يجري في جوفها ماء انكي)، وبعد تسعة أيام هن بمثابة تسعة أشهر، ولدت ننخرساك بلا ألم ولا مخاض ابنتها (نينسار) سيدة الخضار والنباتات التي تأكل [16].

(من اجل دامكان - نونا (أحد ألقاب نينخورساك)
خصص انكي منيه
وسكبه في رحم نينخورساج
وبتلقيها في رحمها المني، مني انكي،

عند ذلك ومن اجلها، عد اليوم الأول شهراً
واليومان عدا شهرين
والأيام الثلاثة، ثلاثة أشهر
والأربعة، عدت أربعة أشهر
والخمسة، عدت خمسة أشهر
والستة، ستة أشهر
والأيام السبعة، سبعة أشهر
والثمانية، ثمانية أشهر
والتسعة، عدت تسعة أشهر،
أشهر الحمل التسعة
(بعد ذلك) كالزيت الناعم (لزوجةً)
كالزيت الناعم، كالدهان الثمين
(نينتو) أم البلاد، كالزيت الناعم،
كالزيت الناعم، كالدهان الثمين
ولدت (نينسار) سيدة الخضار والنباتات التي تؤكل[28]

وتتجسد أهمية هذا التزاوج بين الإلهين "إنكي" إله الماء وهو ذاته إله الخصب، والإلهة الأم "ننخرساك" التي تجسد الأرض، بولادة الإلهة نينسار إلهة النبات[12].

وعليه يمكن أن نقول، إن ارتباط دور الإلهة الأم في عقائد سكان بلاد الرافدين بالأمور الرئيسية الثلاثة المرتبطة بالوجود واستمرارية الحياة وهي (الخلق والإنجاب وخصب الطبيعة)، كانت عاملاً مهماً في استمرار قدسية الأمومة في المعتقد الديني لذلك المجتمع خلال العصور التاريخية. وتتضح مظاهر هذه القدسية في المكانة التي تمتعت بها الإلهة الأم في تلك الديانة. فإذا ما أشرنا إلى أن ثقافة مجتمع بلاد الرافدين في تلك الفترة كانت تعطي مكان الصدارة للرجل في الأمور المصيرية فإن كون الإلهة الأم هي الإلهة الأنثى الوحيدة بين الآلهة الرئيسية الخالقة فهذا يؤكد استمرار اعتبار الأنثى أحد الأسباب المهمة للوجود والحياة، وهي الصورة التي ظهرت بها الإلهة الأم في النصوص المسمارية. هذا بالإضافة إلى ألقاب التبجيل التي كانت تخاطب بها الإلهة الأم في الأساطير كلقب بعلة إيلي أي سيدة الآلهة. و لقب ننماخ الذي يعني السيدة العظيمة أو السامية.

ثالثاً: قدسية الأم في النصوص الأدبية

تعد الأم عنصراً أساسياً في المجتمع لذا نجد لشخصية الأم حضوراً واضحا في الآداب والأساطير من عالمي الآلهة والبشر، وتصور الإنسان القديم عالم الآلهة على غرار عالم البشر، فهم يتزوجون وينجبون وتربطهم علاقات أسرية كما في عالم البشر[12]. وقد ظهرت الأم في الأساطير بصور شتى معظمها كان إيجابياً والبعض القليل منها كان سلبياً، إلا أن جميع تلك الصور تبرز مدى مكانة الأم وأهمية دورها في المجتمع. وتعد ملحمة جلجامش من أشهر النصوص الأدبية في بلاد الرافدين التي كان للأم حضور واضح فيها، وقد عثر على هذه الملحمة ضمن مكتبة آشور بانيبال (668-631ق.م)، ويجمع معظم المؤرخين على أن زمن تدوين الملحمة يعود إلى الألف الثاني ق.م، وجلجامش بطل الملحمة هو أحد ملوك مدينة "أوروك"، وكانت أمه كما جاء في الملحمة هي الإلهة ننسون، وكان أول ظهور لها على مسرح الأحداث، عندما لجأ إليها جلجامش بطل الملحمة يلتمس تفسيراً لرؤياه [29].

يا أمي لقدر رأيت الليلة الماضية حلماً
رأيت أني أسير مختالا بين الأبطال
فظهرت كواكب السماء
وقد سقط أحدها إلي وكأنها شهاب السماء آنو
أردت أن أرفعه ولكنه ثقل علي
تجمع حوله أهل أوروك
ازدحم الناس حوله وتدافعوا عليه
واجتمع عليه الأبطال
وقبل أصحابي قدميه[29].

وقد فسرت ننسون والدة جلجامش الكوكب في رؤيا ابنها بالصديق القوي الذي سيعينه عند الضيق ويلازمه، وهو ما تحقق في شخص إنكيدو. إن هذه الصورة ترمز إلى دور الأم كرافد من روافد المعرفة للإنسان، وذلك بظهور دور فاعل للأم في تفسير الأحداث واستقراء الواقع وتوقع المستقبل[30].

ومن الواضح أن هذا الدور لا يقتصر على مرحلة الطفولة، فأم البطل جلجامش ظهرت مع ابنها على مسرح الأحداث وقد أصبح رجلاً مكتمل القوى ممسكاً بزمام المُلك، وهو رغم هذه القوة لا يزال دائم اللجوء إلى أمه في كل أموره، فنجده في موقف آخر يلجأ إليها عندما قرر أن يحارب الشرير خمبابا، طالباً نصحها وشفاعتها له عند الإله "شمش" ليحميه ويرعاه:

دخل جلجامش واقترب منها
يا ننسون لقد اعتزمت أمراً جسيماً
إنني مقدم على قتال لا أعرف عاقبته
فحتى اليوم الذي أذهب فيه وأعود
تشفعي لي عند الإله "شمش"
وإذ ذاك دخلت حجرتها
وارتدت حلة تليق بجسمها
ووضعت على رأسها تاجاً
وأحرقت البخور، قدمت قربان البخور
ورفعت يديها إلى الإله "شمش" وقالت:
علامَ أعطيت ولدي قلبا مضطرباً لا يستقر
سيلاقي نزالا لا يعرف عاقبته
فحتى اليوم الذي يذهب فيه ويعود
عسى عَرُوسُك "آي" أن تُذكرك به
ولتوكل به حراس الليل والكواكب وأباك "سين"
حينما تحتجب أنت في السماء[29].

إن حالة الاحتضان والاحتواء التي منحتها الأم لابنها في هذه الملحمة تصور استمرارية دور الأم في احتضان الإنسان وتطوره بتطور مراحله العمرية وأحداث حياته، فهي كانت ملاذه الآمن الذي يلجأ إليه في الأوقات الصعبة، إما لتُبدد حيرته كما في الموقف الأول أو لتُشعِره بالأمان كما في الموقف الثاني، بل إن الأم كانت النموذج الوحيد في الملحمة للأنثى التي جسدت حالة الاحتضان الدائم للإنسان، إذ أن علاقته بعشتار وهي الأنثى التي كانت تحاول أن تلعب دور الحبيبة أو الزوجة بالنسبة له قوبلت بالصدود، فلم ينصرف لها جلجامش رغم ما أبدته نحوه من عاطفة كانصرافه إلى أمه واطمئنانه لها[30].

ونجد مثالاً آخر للأم الحكيمة في أسطورة مارتو حيث يطلق السومريون والأكديون على هذا الإله امورو أو مارتو، والذي يرمز إلى إله الأموريين، وهم إحدى القبائل الجزرية الغربية التي دخلت بلاد الرافدين، ويمثل مارتو، في ذاته رمزاً للهوية الأمورية وربما ساهم في ترسيخ الشعور بالتميع العرقي والثقافي للأموريين في الوعي السومري والأكدي، وأمه في الأسطورة الأصلية بلا اسمن دورها ارشادي فقطن أما والده يذكر أنه الإله آنو [18]. وهي أسطورة مدونة باللغة السومرية، تعود للألف الثالث ق.م، عثر عليها بين ألواح مدينة نيبور[31]. والتي يظهر فيها ارتباط كبير بين بطل الأسطورة الإله "مارتو" ووالدته، فهو حين شعر بالوحدة والحاجة إلى شريكةٍ لحياته، انصرف إلى أمه يشكو لها وحدته وينشد مساعدتها في اختيار الزوجة:

في مدينتي، جعل أصدقائي لأنفسهم أزواجاً
وجيراني جعلوا لأنفسهم أزوا جاً
وفي مدينتي (أنا وحدي) من بين أصدقائي، لا زوجة لي
ليس لي زوجة، ليس لي أولاد
يا أماه خذي لي زوجة
وسأقدم لك هديتي[31].

لكن الأم بخبرتها تدرك أن اختيار شريكة الحياة لابد وأن يتم وفقاً لرغبات الإنسان نفسه دون تدخل من طرف آخر، فكانت نصيحتها لابنها ابحث لنفسك عن زوجة طبقاً لرغبتك[31].

ونظراً لأهمية دور الأم في حياة الأبناء فقد ظهرت في بعض الأساطير كمحرك للأحداث، ففي أسطورة إنليل وننليل وجهت ننبارشكونو والدة الإلهة ننليل ابنتها لإغواء الإله إنليل كي يقع في حبها، الأمر الذي أفضى إلى إنجابهما لإله القمر نِنــا، وهو أحد الأحداث الرئيسية في الأسطورة[18]:

في تلك الأيام، وجهت الأم النصح إلى عذرائها التي ولدتها،
نـنبار شكونو وجهت النصح إلى إنليل،
في النهر الصافي، يا عذرائي،
تمشي على ضفاف نهر ادننبردو..
الجبل العظيم... الأب إنليل،
الراعي الذي يقدر المصائر ..سيراك....
وتعمل ننليل بنصيحة أمها فتصبح حبلى من ما ء إنليل
وتحمل إله القمر ننَا[18].

وإلى جانب العطاء الذي كانت تمنحه الأم لأبنائها من عاطفة ومعرفة، نلمس نوعاً من الوصاية للأم على أبنائها في ثقافة مجتمع بلاد الرافدين، يتضح في إحدى أساطير إنانا ودموزي، حيث تذكر الأسطورة أن إنانا في إحدى لقاءاتها بالإله دموزي، كانت قلقة بشأن تبرير غيابها لأمها نِنكال[32]:

هيا أيها الراعي دعني، يجب أن أعود إلى بيتنا
أية كذبة سوف أرويها لأمي ننكال؟
لكن دموزي يجيبها بما كانت تنتظر منه
سوف ألقنك كيف تكذب النساء
قولي لها صديقتي كانت تمرح معي في الساحة
رقصت حولي على وقع الطبلة
وغنت لي الأناشيد الأكثر عذوبة
هكذا وبهذه الحيلة تقفين أمام أمك[32].

ولم يكن الاحترام الذي تحظى به الأم في ثقافة بلاد الرافدين يمنع وجود بعض النماذج السلبية من الأمهات، التي لم تجسد المعاني السامية للأمومة، فشخصية الأم في أسطورة ثيوغونيا دونو" ظهرت بصورة المرأة اللعوب الناشدة للمتعة دون أمومتها، فالأسطورة بشكل عام تتحدث عن سفاح القربى الذي حدث في أجيال متعاقبة، وكانت بداية القصة حين تزوج المحراث من الأرض وأنجبا إله القطيع[22]:

ثم رفعت الأرض وجهها
نحو ابنها إله القطيع وقالت له
تعال ودعني أمارس الحب معك
وتزوج إله القطيع من أمه الأرض،
وقتل أباه المحراث[22].

ثم تتكرر القصة على التوالي على مدار أجيال متعاقبة، ولا تتضح نهاية الأسطورة بسبب تلف في بعض أجزاء اللوح[22]. وعليه يمكن أن نلاحظ في الأسطورة، إن الخطيئة التي ترتكبها الأم الأولى في الأسطورة وهي الأرض، تنتهي بسلسلة من الجرائم المتعاقبة على مدار عدة أجيال، ويبدو أن المغزى من هذه الصورة هو التأكيد على دور الأم كمثل أعلى للأبناء، ذلك أن خطيئتها كانت مفتاحاً لسلسة من الخطايا. كما يظهر بوضوح من هذه الأسطورة رفض مجتمع بلاد الرافدين لسفاح القربى.

ويمكننا أن نستجلي صوراً أكثر واقعية لمكانة الأم في مجتمع بلاد الرافدين في ثنايا نصوص لرسائل أرسلت من قبل أبناء لأمهاتهم، إحداها رسالة مكتوبة باللغة السومرية من شخص يدعى أوجوبي يبدو أنه من سكان مدينة أوريم، لكنه ارتحل إلى أريدو، وعاش بها على ما يبدو ظروفاً قاسية، فكتب إلى والدته يشكو إليها ويبث لها شوقه وحنينه **"أيها المسافر، أخبر أمي ماذا يقول أوجوبي، إن أوريم مدينة نانا البهيجة، ولكني الآن أجلس خلف باب منزل موسيقي كبير في أريدو، مدينة إنكي الوفيرة، الحنين يهلكني، أرسلي لي رسالة، إنه أمر ضروري[33].**

وفي نص سومري نجد صورة رائعة للأم، في رسالة أرسلها شاب يدعى لودينجيرا لأمه التي تسكن في مدينة نيبور، في هذا النص كان المرسل يصف أمه لساعي البريد كي يتمكن من التعرف عليها وتسليمها الرسالة، ويحمل هذا النص تشبيها وأوصافاً في غاية الروعة، تكشف إلى أي مدى كانت الأم نموذجاً مثالياً في مخيلة كاتب النص[34]. ففي هذه الأوصاف رسم الكاتب صورة لأمه تجمع بين جمال الشكل والروح **إنها محبة، رقيقة، حيوية، قلب محب لا ينضب من البهجة، إنها كالضوء الساطع في الأفق، ظبية على سفوح الجبال، نجمة الصباح المشرقة تلمع حتى في وقت الظهيرة، حجر العقيق الأحمر الثمين، قطعة توباز من مار هاشي، كنز ملكي كامل السحر، إنها تمثال من المرمر، يقف على قاعدة من اللازورد. تمثال للحياة، أعضاؤها مليئة بالسحر[35]**، وربما كان هذا الاتجاه في رسم الأم بهذه الصورة الجميلة يرتبط بشكل أو بآخر بتجسيد تماثيل الإلهة الأم كنموذج للجمال والنضارة خلال الألفين الثالث والثاني ق.م . وتجسد بعض الأوصاف التي ذكرت في الرسالة كيف كان ذلك الشاب يرى في أمه صورة الخصب والحياة **إنها المطر السماوي، الذي ينبت أحسن البذور، الحصاد الجميل الذي ينبت محصولا آخر، حديقة من البهجة، مليئة بالفرح، باكورة الفاكهة التي تثمر في أول شهر. القناة التي تجلب الماء الوفير إلى مصارف الري[35]**. وفي نهاية هذا الوصف البديع، ختم الكاتب حديثه برسالة تحية إلى أمه **عندما تصل إليها بفضل الأوصاف التي أعطيتها لك، وتقف في إشراقة حضورها، قل لها: ابنك المحب لودينجيرا يبلغك تحياته**[35]، ومما سبق يمكن إن نلاحظ بلاغة هذه الرسالة عن الصورة المثالية للأم في مجتمع بلاد الرافدين، فهذه الأوصاف حتى لو كانت تحمل شيئاً من المبالغة إلا أنها تعبر عن الصورة التي كان يراها الفتى في أمه، وهي صورة تأثرت بلا شك بثقافة المجتمع في تلك الفترة تجاه الأمومة وإن العراقي القديم جعل للأم قدسية خاصة ولازالت هذه القدسية والمكانة سائدة في المجتمع لهذه اللحظة.

كما تعد الحكم والأمثال الشعبية ايضاً جزءاً مهما من ثقافة المجتمع العراقي القديم، ذلك أنها انعكاس لثقافة المجتمع بكل أطيافه، وبالتالي فإن تداول فكرة أو مبدأ ما في الأمثال الشعبية يؤكد وجوداً متأصلاً لهذه الفكرة في ثقافة ذلك المجتمع. ومن بين الأمثال المكتشفة ضمن الآثار الكتابية لبلاد الرافدين، عثر على نصوص لأمثالٍ تحث على تقدير الأم والبر بها[31]. فمن بين تلك الأمثال ما يحض على إدخال السعادة إلى قلب الأم **ار َض بنصيبك واجعل أمك سعيدة**[34]، ومنها ما يأمر بطاعتها **أطع كلام أمك كأنه أمر إلهي**[34]، ومن نصائح الحكيم شروباك، نجد نصيحة تربوية أخرى تساوي الأم بالآلهة **يجب ألا تشكك في كلمات أمك وإلهك الخاص**[36]. وفي أكثر من حكمة كانت هناك توجيهات مباشرة إلى احترام الأم والتعامل معها بلطف **" يجب على الطفل التصرف بتواضع تجاه والدته، يجب عليه أن يأخذ في الاعتبار الجيل الأكبر منه سناً [37]، يجب أن لا تتحدث مع أمك بغرور فإن ذلك سيسبب لك الكراهية** [36]. ورغم أن نظام الأسرة الأبوية كان هو السائد في مجتمع بلاد الرافدين بما يمنحه من سلطات واسعة للأب على أفراد أسرته، إلا أن ذلك لم يلغي على ما يبدو سلطة الأم داخل الأسرة. ونجده في هذا المثل من مدينة نيبور **مصيري في صوتها: أمي تستطيع أن تغيِره**[38] .

رابعاً: صورة الأم في المنحوتات الفنية

لقد كان الفن أولى اللغات التي عبر بها الإنسان عن قدسية الأمومة، ذلك أن تقديسه لإلهة الأمومة هو الذي جعله يجسدها في صورة تماثيل من الطين قبل أن يتمكن من توثيق معتقداته كتابياً. ومع أن الصور الأولى لتماثيل الإلهة الأم كانت تركز على عملية الإنجاب بشكل مباشر، سواء بتصوير مظاهر الحمل كتماثيل الألف السابع ق.م أو بتجسيد أوضاع الولادة كما في الألفين السادس والخامس ق.م[3]، إلا أنها بدأت تتجه خلال الألف الرابع ق. م إلى إظهار معانٍ أخرى. فمنذ فترة العُبيد في الألف الرابع ق.م اختفت مظاهر الحمل من تماثيل الإلهة الأم وحل محلها طفل صغير تحمله الأم إلى صدرها، واستمرت هذه الصورة في فنون بلاد الرافدين طيلة الألفين الثالث والثاني ق.م، بل إنها أصبحت تجسد بوضوح صورة الأم المرضعة، مع إظهار الأم بصورة أكثر جمالاً بوجه جميل وقوام رشيق[39]، ينظر شكل (2).

Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 7, No. 3 ISSN: 2788-6026
Doi: 10.54720/bajhss/2025.070315 Pages: 153-167

شكل (2) نماذج من تماثيل صغيره مصنوعة من الطين المخفور يصور امرأة ترضع طفلها في مشهد أنساني يعبر عن الأمومة ودوها في الحياة اليومية [40].

وربما كان تحول الاتجاه إلى هذا التصوير في تماثيل الأمومة يوحي أيضا بتحول النظرة لأهمية دور الأمومة من دورها في إنجاب الإنسان ووجوده في الحياة إلى دورها في احتضان هذا الإنسان ورعايته لمساعدته على البقاء. وتظهر مشاهد الأمومة في الحياة اليومية من خلال الصور المنحوتة على الكثير من الأختام الأسطوانية من عصر فجر السلالات (2900-2370ق.م) والعصر الآكدي (2371-2230 ق.م)، بالإضافة إلى الكثير من لوحات التيراكوتا (الفخار) من العصرين البابلي القديم (1894-1595 ق.م) والحديث (الكلداني 627-539ق.م) وتصور تلك المشاهد أمهات وإلهات يحملن أطفالاً[41]. كذلك نجد حضوراً لموضوع الأمومة في الفن الآشوري ضمن اللوحات الجدارية في القصور الآشورية التي تعود إلى الفترة ما بين (880 -625ق.م). وهي لوحات كان موضوعها الرئيس انتصارات الملوك الآشوريين، وتضمنت مشاهد ما بعد الانتصار التي كان يتم فيها ترحيل سكان المناطق المهزومة في المعركة، وكان النساء والأطفال والمجموعات الأسرية يشكلون غالبية المرحلين[42]. ينظر شكل (3).

شكل (3) منحوتة جدارّية تصّور ترحيل العائلات خلال حملة عسكرية على لاخيش في فلسطين، تعود لعصر سنحاريب(705-681 ق.م)، عثر عليها في القصر الجنوبي الغربي في نينوى [43].

وكان الظهور الأهم لدور المرأة في المجتمع الذي يتجلى كثيراً في هذه اللوحات وهو الأمومة، لاسيما الأطفال في مسيرات المرحلين، إذ عرف الآشورّيون بقسوتهم وفتوحاتهم وحملاتهم العسكرية الكبرى، حيث اعتمدوا سياسة التهجير القسري للسكان واعادة التوطين في أماكن أخرى، وتشهد على ذلك مشاهد الترحيل المنحوتة على الجداريات التي عثر عليها في قصور الملوك الآشورّيين[44]. وكثيراً ما كانوا يظهرون الاطفال إلى جانب أمهاتهم خلال الرحلات الطويلة وأولئك الأصغر سناً غير القادرين على المشي كانوا محمولين على أذرع أمهاتهم. وتظهر صور رعاية الأم لأطفالها في مشهد لأمهات واقفات في مسيرة المرحلين يقدمن بعض المشروبات لأطفالهن وأمهات أخريات يُرضعن أطفالهن الصغار. ينظر شكل (4).

Bilad Alrafidain Journal of Humanities and Social Science Vol. 7, No. 3 ISSN: 2788-6026
Doi: 10.54720/bajhss/2025.070315 Pages: 153-167

شكل (4) إحدى مشاهد الأمومة في اللوحات الجدارية الموجودة في قصر الملك سنحاريب في نينوى، وتصف اللوحة بعض مشاهد المرحلين من ديارهم، حيث تظهر أم تسقي طفلها الصغير[45].

كما تجسد بعض المشاهد مشاعر المحبة والحنان عند الأمهات حيث تظهر فيها بعض الأمهات يقبلن أطفالهن الرضع[42]. وفي مشهد أخر نجده في المنحوتة الجدارية التي تجسد تهجير سكان لاخيش التي كانت من الممالك الكنعانّية المتأخرة في عهد الآشوريين، وقد دفع بعض ملوكها الجزية للآشورّيين، ومنهم الملك حزقيا الذي دفع الجزية للملك الآشورّي سنحاريب (705-681ق.م) (تل الدوير، جنب فلسطين)[46]، وان الجدارية المنحوتة محفوظة في المتحف البريطاني، التي صورت ترحيل العائلات خلال الحملة العسكرية على لاخيس ، تعود لعصر سنحاريب (705-681ق.م)، وما يهمنا في هذه المنحوتة الفنية نلاحظ أن المرأة الأولى تجلس في المقدمة تمسك بيدها سوطاً، توجه فيه سير العربة والمرأة الثانية تجلس خلفها مع ولديه، وعلى ما يبدو أن الطفل الأول الأصغر عمراً يجلس في حضن أمه، بينما الطفل وهو اكبر سناً يجلس خلف أمه[33]. ومما لا شك فيه أن هذا التركيز على موضوع الأمومة ضمن تقديم المرأة في فنون بلاد الرافدين يعكس احتراماً لدور الأم داخل الأسرة[47]، ينظر في الشكل رقم (5) .

شكل (5) مشاهد مأخوذة من (منحوتة جدارّية تصّور ترحيل العائلات خلال حملة عسكرية على لاخيش في فلسطين، تعود لعصر سنحاريب 705 -681 ق.م، عثر عليها في القصر الجنوبي الغربي في نينوى)[33].

الاستنتاجات

توصل البحث إلى:

1- أنَّ سكان بلاد الرافدين في عصور ما قبل التاريخ كانت عندهم عقيدة دينية، وأنَّ أول معبود تصوروه وعبدوه كان ذات صلة بقوى الأرض المنتجة على هيئة آلهة تمثل الأرض وخصبها، وهذه هي الآلهة التي يُطلَقُ عليها اسم الآلهة الأُمّ، وإن قدسية الأمومة كانت مرتبطة بعقائد الخصب والحياة، ولم تتراجع رغم ظهور المجتمعات الأبوية وتفوق مكانة الرجل الاجتماعية في العراق القديم.

2- إن ارتباط دور الإلهة الأم في عقائد سكان بلاد الرافدين بالأمور الرئيسية الثلاثة المرتبطة بالوجود واستمرارية الحياة وهي (الخلق والإنجاب وخصب الطبيعة)، كانت عاملاً مهماً في استمرار قدسية الأمومة في المعتقد الديني لذلك المجتمع خلال العصور التاريخية.

3- أن التطور الذي طرأ على قدسية الأم منذ الألف الرابع قبل الميلاد أضفى أهمية أخرى إضافة إلى دورها في الإنجاب وارتباطها بمعتقدات الخصب والحياة، فمنذ ذلك التاريخ بدأت فنونهم وآدابهم تركز على تصوير الرعاية الأمومية أكثر من مشاهد الحمل والولادة.

4- ظهرت الأم في الأساطير بصور شتى معظمها كان إيجابياً والبعض القليل منها كان سلبياً، إلا أن جميع تلك الصور تبرز مدى مكانة الأم وأهمية دورها في المجتمع.

5- رغم اتساع مفهوم قدسية الأمومة فإن ارتباط الأمومة بعقائد الخصب والحياة ظل يشكل جزءاً مهماً من ديانة بلاد الرافدين، وجزءً من صورة الأمومة في ثقافتهم، وهو ما اتضح من خلال صورة الأم في كتاباتهم الأدبية.

6- نلاحظ بلاغة الأدب العراقي القديم في تقديس الصورة المثالية للأم في المجتمع والتي عبرت عن الصورة التي كان يراها العراقي القديم في أمه، وهي صورة تأثرت بلا شك بثقافة المجتمع في تلك الفترة تجاه الأمومة.

7- لقد كان الفن أولى اللغات التي عبر بها الإنسان العراقي القديم عن قدسية الأم والتي ظهرت فيها الأم بصورة أكثر جمالاً بوجه جميل وقوام رشيق, وقد جسدت بعض المشاهد الفنية المحبة والحنان عند الأمهات حيث تظهر فيها الأمهات يقبلن أطفالهن الرضع.

8- أن المكانة السامية والدور المثالي الذي اكتسبته الأم في ثقافة بلاد الرافدين، وتلك الصورة القدسية والجمالية التي جسدتها الأم في ذهن الإنسان العراقي القديم، سواء كان ذلك في الفكر الديني أو في الكتابات الأدبية والاعمال الفنية، وهي نابعة من دورها المهم في الرعاية الأمومية التي أحاطت بها أبنائها، ذلك أن الإنسان أصبح يشعر بأهمية هذا الدور أكثر من دورها في خلقه ووجوده، خاصة وأنه كان يعتقد بعدم تفردها في عملية الخلق، لكنها وحدها من تقوم بدور الاحتضان الأمومي له طوال حياته، وهو الدور الذي كان يملأ فراغاً كبيراً في حياته ويشكل له أهمية قصوى كما يتضح من ملحمة جلجامش ورسالة لودينجير.

المصادر

[1] الشمس، ماجد عبدالله (2003): الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم، دمشق، دار رسلان، ص10-17.
[2] خياطة، محمد وحيد (1984): المرأة والألوهية، اللاذقية، دار الحوار، م.
[3] باقر، طه (2009): مقدمة في تاريخ الحضارات، دار الوراق، لندن، ص218 ،239 ،240، 257.
[4] قصير، هبه لانا(2023)، ثلاث جدارّيات آشورّية من المتحف البريطاني توثّق التهجير القسري للسّكان (القرنين السابع والثامن قبل الميلاد)، حولية الاتحاد العام للآثاريين العرب، العدد 26.
[5] Bienkowski, P., & Millard, A. (Eds.). (2010). *Dictionary of the ancient Near East*. University of Pennsylvania Press.
[6] خياطة، محمد وحيد (1984): المرأة والألوهية، اللاذقية، دار الحوار، م.
[7] باقر، طه (2009): مقدمة في تاريخ الحضارات، دار الوراق، لندن، ص218 ،239 ،240، 257.
[8] لويد، سيتون (1993)، اثار بلاد الرافدين من العصر الحجري حتى الغزو الفارسي، ترجمة: محمد طلب، دار دمشق، دمشق، ص95-99.
[9] عبد الحليم، نبيلة محمد (1973)، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، دار المعارف، مصر.
[10] محيسن، سلطان (2005)، عصور ما قبل التاريخ، دمشق، جامعة دمشق.
[11] زايد، عبد الحميد (د.ت)، الشرق الخالد مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى منذ أقدم العصور حتى عام 323 ق.م، دار النهضة العربية، القاهرة.
[12] دانيال، كلين (1991)، موسوعة علم الآثار، ترجمة : ليون يوسف، ج1، دار المأمون، بغداد.
[13] Oates Joan (1979), Babylon with137 illustrations, Thames and Hudson, London, p127.
[14] البياتي، زينب (2019)، أسرار الخلود، الموروث الفني التشكيلي الرافديني وانعكاسه على الخزف العراقي، دار المفكر، بغداد.
[15] الجبوري، علي ياسين(2010)، قاموس اللغة الاكدية –العربية، ط1، ابو ظبي.
[16] عقراوي، ثلماستيان (1977)، المرأة دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين، بغداد، دار الحرية ، ص20-22.
[17] كريمر، صمويل (1957)، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، بغداد، مكتبة المثنى.
[18] حنون، نائل (2002)، عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص91-93 ،54، 89-92 ، 69 ، 29 ، 84 ، 94 ، 50.
[19] جواد، حسن فاضل (1999)، الأخلاق في الفكر العراقي القديم، بغداد، بيت الحكمة ،ص17-21.
[20] كريمر، صمويل(1971)، الأساطير السومرية، ترجمة يوسف عبد القادر، بغداد، جمعية المترجمين العراقيين.
[21] باقر ، طه(2010) ، مقدمة في أدب العراق القديم، لندن، دار الوراق.
[22] الماجدي، خزعل (2021)، الحضارة الآشورية: سلسلة تاريخ الحضارات جـ2، دار الرافدين ط1، بيروت، ص415-416.
[23] الوائلي، فيصل(2007)، من أدب العراق القديم ترانيم وأدعية سومرية، لندن، دار الوراق
[24] الغانمي، سعيد(2008)، أترا حسيس ملحمة الخلق والطوفان، بيروت، المركز الثقافي العربي.

[25] دالي، ستيفاني(1991)، أساطير من بلاد ما بين النهرين، ترجمة نجوى نصر، بيروت، دار بيسان.
[26] كامل، سعفان (1989)، موسوعة الاديان القديمة –معتقدات اسيوية، دار الندى، مصر.
[27] علي، فاضل عبد الواحد (1991)، موسوعة الموصل الحضارية، المعتقدات الدينية مجلد 1، ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل.
[28] نعمة، حسن(1994)، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ص269-270.
[29] الأسود، حكمت بشير (2008)، أدب الرثاء في بلاد الرافدين، دمشق، دار الزمان، ص189-190.
[30] Cornwall, P. B. (1946). On the location of Dilmun. Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 103(1), 3-11.
[31] باقر، طه (2009)، ملحمة كلكامش، لندن، دار الوراق ، ص 62-64.
[32] كبه، نجاح عبدالهادي(2008)، دراسات في ملحمة جلجامش، عمان، دار الطريق.
[33] الماجدي، خزعل (1998)، متون سومر، عمان، دار الأهلية.
[34] سليم، أحمد أمين (1985)، الأسرة في العراق القديم دراسة من خلال أدب الحكم والنصائح، بيروت، دار النهضة العربية.
[35] الشواف، قاسم (1997)، ديوان الأساطير ـ سومر وأكاد وآشور، دار الساقي، بيروت، الكتاب الأول، ص29-35.
[36] Civil, M. (1964). The" Message of Lú-Dingir-ra to His Mother" and a Group of Akkado-Hittite" Proverbs". Journal of Near Eastern Studies, 23(1), 1-11.
[37] ظاهر، حسين(1991)، مكانة الأولاد في المجتمع العراقي القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، الموصل، جامعة الموصل، ص22-25.
[38] Ndoga, S. S. (2014). The Plausibility of Proverbs 31 as final parental (motherly) instruction. Journal for Semitics, 23(1), 172-194.
[39] السواح، فراس (2006)، مدخل إلى نصوص الشرق القديم ، دار علاء الدين للنشر، دمشق، ص232-235.
[40] الشمري، طالب منعم حبيب، وحاجم، عبد الرزاق حسين (2008): الفكر الديني في بلاد الرافدين من خلال بعض الالواح الفخارية غير المنشورة، مجلة القادسية، كلية الآداب والعلوم التربوية، مجلد18، العدد2
[41] Siegmund, C. G. (2023). The Morphological Means for Coding Modality in the Sumerian Verbal Complex (Doctoral dissertation, The University of Chicago).
[42] Zainab Bahran (2001). Women of Babylonian Gender and Representation in Mesopotamia, London, Routledge, p81.
[43] قصير، هبه لانا(2023)، ثلاث جدارّيات آشورّية من المتحف البريطاني توثّق التهجير القسري للسّكان (القرنين السابع والثامن قبل الميلاد)، حولية الاتحاد العام للآثاريين العرب، العدد 26 ، ص260.
[44] البياتي، زينب (2019)، أسرار الخلود، الموروث الفني التشكيلي الرافديني وانعكاسه على الخزف العراقي، دار المفكر، بغداد.
[45] علي، فاضل عبد الواحد (1991)، موسوعة الموصل الحضارية، المعتقدات الدينية مجلد 1، ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل.
[46] أحمد، زياد طارق حاتم (اكتوبر، (2020)، الفكر الديني وأثره السياسي، في بلاد الرافدين، مجلة البحث العلمي في الآداب، العدد21، مجلد8، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين الشمس، مصر.
[47] ساكز، هاري(2000)، الحياة اليومية في العراق القديم، ترجمة كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.